

إعداد الأمانة العامة لهيئة الإعجاز العلمي

إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته، فهي ظاهرة في نظمه، وفي إخباره عن الأولين، وفي إنبيائه بحوادث المستقبل، وحكم التشريع وغيرها، ولقد شاع مصطلح الإعجاز العلمي في عصرنا، للدلالة على أوجه إعجاز القرآن والسنة التي كشفت عنها العلوم الكونية ونظراً لجدة البحث في حقل الإعجاز العلمي في القرآن - بالنسبة لغيره من حقول الدراسات القرآنية - فسوف نقدم في هذا البحث تأصيلاً لهذا العلم بغية إغاثة المشتغلين في هذا الحقل على ارتياد آفاقه. ونبدأ بتعريف الإعجاز لغة: مشتق من العجز. والعجز: المضعف أو عدم القدرة، وهو مصدر أعجز بمعنى الضوت والسبق (انظر لسان العرب لابن منظور مادة عجز 5/370 والمفردات للراغب الأصفهاني). والمعجزة في اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة (انظر معنى ذلك في تفسير القرطبي 1/96 وفتح الباري 6/581). وإعجاز القرآن: يقصد به إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله. أي نسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الإتيان بمثله. ووصف الإعجاز هنا بأنه علمي نسبة إلى العلم. والعلم: هو إدراك الأشياء على حقائقها أو هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تاماً (راجع الراغب الأصفهاني: المفردات ص 343 والشوكاني: إرشاد الفحول ص 4) والمقصود بالعلم في هذا المقام: العلم التجريبي.

تعريف الإعجاز العلمي:

وعليه فإن الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول مما يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى.

مناسبة المعجزة القرآنية - بما تتضمنه من حقائق علمية - لعالمية الرسالة الإسلامية:

لما كان المرسل قبل محمد يبعثون إلى أقوامهم خاصة، ولأزمنة محدودة فقد أيدهم الله ببيانات حسية مثل: عصا موسى عليه السلام وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليه السلام وتستمر هذه البيانات الحسية محتفظة بقوة إقناعها في الزمن المحدد لرسالة كل رسول حتى إذا تطاول الزمن وتقدم وضعف أثر الرسالة الصافي، اختفت قوة الإقناع الحسية، وبعث الله رسوماً آخر بالدين الذي يرضاه، وبمعجزة جديدة وبيئة مشاهدة. ولما ختم الله النبوة بمحمد ضمن له حفظ دينه وأيده ببيئة كبرى تبقى بين أيدي الناس إلى قيام الساعة قال تعالى: (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) (الأنعام: 19) ومن ذلك ما يتصل بالمعجزة العلمية. وقال تعالى { لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه } (النساء: 166) وفي هذه الآية التي نزلت رداً على تكذيب الكافرين بنبوة محمد (انظر سبب النزول ابن الجوزي 2/257، المطبوع 5/22، ابن كثير 1/590، الجلالين ص 137) بيان لطبيعة المعجزة العلمية التي تبقى بين يدي الناس، وتتجدد مع كل فتح بشري في آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعاني الوحي الإلهي.

قال الخازن عند تفسير هذه الآية: "لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك" (الخازن في مجموعة من التفاسير 2/210) وقال ابن كثير " أنزله بعلمه أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البيئات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل " (ابن كثير 560/1) وقال أبو العباس ابن تيمية: فإن شهادته بما أنزل منه وأنه أنزله بعلمه فما فيه من الخبر وخبر عن علم الله يسن خبراً عمن دونه (الفتاوى 14/196) وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين (ابن الجوزي 2/257، المزمخشري 1/584، أبو حيان 3/399، الماوسى 6/19، الشوكاني 1/539، البيضاوي والنسفي والخازن في كتاب مجموعة من التفاسير 210، الجلالين ص 137). وهكذا تسطع بيئة الوحي المنزل على محمد بما نزل فيه من علم إلهي يدركه الناس في كل زمان و مكان ويتجدد على مر العصور ولذلك قال: " ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " (البخاري: فتح الباري 9/3، مسلم: كتاب الإيمان) قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: " ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه وفي بلاغته، وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شئ مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد، ومن سيوجد " (فتح الباري لابن حجر: 9/7).

جريان العلم وراء ما أخبر عنه القرآن:

وبينة القرآن العلمية يدركها العربي والأعجمي، وتبقى ظاهرة متجددة إلى قيام الساعة، ففى القرآن أنباء نعرف المقصود منها لأنها

بلسان عربي مبين، لكن حقائقها وكيفياتها لا تتجلى إلا بعد حين. قال تعالى: { أن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين } (ص 87-88) قال المفسر الحين أنه: "بعد الموت وقبله.. أي في المستقبل" (المقرطبي 15/231) وذهب السدي الكبير إلى هذا المعنى (أبو حيان 412/7) وقال ابن جرير الطبري: أن الله أعلم المشركين بهذا القرآن أنهم يعلمون نبأه بعد حين من غير حد منه لذلك الحين بحد، ولما حد عند العرب للحين (الطبري 23/121).

استقرار الحقيقة المخبر عنها:

وشاء الله أن يجعل لكل نبياً زمنًا خاصاً يتحقق فيه فإذا تجلى الحدث ماثلاً للعيان أشرقت المعاني التي كانت تدل عليها الحروف والألفاظ في القرآن وتتجدد المعجزة العلمية في قوله تعالى: { لكل نبياً مستقر وسوف تعلمون } (الأنعام: 67) ويبقى النبأ الإلهي محيطاً بكل الصور التي يتجدد ظهورها عبر القرون. وقال ابن جرير الطبري: "أي لكل خبر مستقر، يعني قرار يستقر عنده ونهاية ينتهي إليها ليتبين حقه وصدقه من كذبه وباطله" وسوف تعلمون يقول: وسوف تعلمون أيها المكذبون بصحة ما أخبر به " (الطبري 7/147) وقال ابن كثير: أي لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال تعالى: "ولتعلمن نبأه بعد حين" وقال { لكل أجل كتاب }

(المرعد 38) (ابن كثير 2/144) وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين. (المقرطبي 7/11، الشوكاني: 2/128، الرازي: 7/25، 26 المقاسمي: 6/575 أبو السعود 147/3، البقاعي: 7/145، 146).

أنباء الأرض والسماء في القرآن والسنة تتجلى في عصر الاكتشافات:

أن خبر القرآن والسنة وما فيهما من أوصاف لما في الأرض والسماء، هو نبأ إلهي عما في الأرض والسماء ممن هو أعلم بما خلق فيهما من أسرار قال تعالى: { قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولما في الأرض } (يونس 18) فالخبر بما في الأرض والسماء نبأ عما في الأرض والسماء. لقد نزل القرآن في عصر انتشار الجهل وشيوع الخرافة، والكهانة، والسحر والتنجيم في العالم كله وكان للعرب النصيب الأوفى من هذه الجاهلية والأمية كما بين القرآن ذلك بقوله: { هو الذي بعث في الأميين رسلاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } (الجمعة: 2).

في ذلك العصر وعلى تلك الأمة نزل الوحي وفيه علم الله، يصف أسرار الخلق في شتى الأفاق ويجلي دقائق الخلق في النفس البشرية يقرر البداية في الماضي ويصف أسرار الحاضر ويكشف غيب المستقبل الذي ستكون عليه سائر المخلوقات. وعندما دخل الإنسان في عصر الاكتشافات العلمية وامتلك أدق أجهزة البحث العلمي وتمكن من حشد جيوش من الباحثين في شتى المجالات يبحثون عن الأسرار المحجوبة في آفاق الأرض والسماء وفي مجالات النفس البشرية يجمعون المقدمات ويرصدون النتائج في رحلة طويلة عبر القرون ولما أخذت الصورة في الاكتمال والحقيقة في التجلي وقعت المفاجأة الكبرى بتجلى أنوار الوحي الإلهي، الذي نزل على محمد قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بذكر تلك الحقيقة في آية من القرآن أو بعض آية أو في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعض حديث بدقة علمية معجزة وعبارات مشرقة وبهذا أنبأنا القرآن. قال تعالى: { قل أرأيتم أن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد سنجزيهم آياتنا في الأفق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد } (النص القرآني).

معنى آيات الله في الأفق وفي الأنفس الأفق:

ما ظهر من ذواحي الفلك وأطراف الأرض وآفاق السماء: نواحيها (مقاييس اللغة: لابن فارس 1/114، 115، لسان العرب: 15/5، 6، المصباح للجوهري: 4/1446، تاج العروس: 1/279، المفردات لأصفهاني: 19) وآيات الله في آفاق الأرض والسماء تحمل معاني ثلاثة: الأول: المخلوقات التي خلقها الله في شتى آفاق الأرض والسماء مثل قوله تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) (المشوري: 29)

الثاني: آيات القرآن التي تخبر وتصف أنواع المخلوقات، وهي آيات كثيرة. الثالث: المبيّنات والمعجزات التي يظهرها الله تصديقاً لرسوله في شتى آفاق الأرض والسماء برؤية مصداقها من حقائق الخلق حيناً بعد حين.

قال الشوكاني عند تفسير الآية: سنريهم صدق دلالات صدق القرآن، وعلامة كونه من عند الله في الآفاق - أي في النواحي - وفي أنفسهم.. (فتح المقيّد: 4/523). وقال ابن كثير: أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله بدلائل خارجية في الآفاق. (تفسير ابن كثير 4/106) وقال المزمخشري: ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب، الذي هو على كل شيء شهيد أي مطلع ومهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه حق وأنه من عنده (الكشاف 3/458). وبهذا قال كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى: (حتى يتبين لهم أنه الحق) (فصلت: 53) وقال أبو العباس ابن تيمية: وأما الطريق العيان فهو أن يرى العباد من الآيات الدافقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق كما قال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (الفتاوى: 14/189). "وقال عطاء وابن زيد أيضاً: في (الآفاق) يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق والمصواع والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها" (القرطبي: 15/374:375) وروى هذا عنهما عدد من أئمة التفسير (الطبري: 24/25، أبو حيان 7/505، الخازن في مجموعة من التفسيرات: 5/395، الشوكاني: 4/523). فهذه آيات الله في كتابه تتحدث عن آياته في مخلوقاته وتتجلى بمعجزة علمية بينة تسطع في عصر الكشوف العلمية في آفاق الكون.

اللقاء حتمي والمعجزة واقعة:

إننا على وعد من الله عز وجل بأن يرينا آياته فيتحقق لنا - بهذه الرؤية - العلم الدقيق بمعاني هذه الآيات كما قال تعالى: (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها)

(النمل: 93) ومخلوقاته من آياته ومنها ما جاء في القرآن وصفاً ونبأ عن آياته في السموات والأرض. وروى الطبري عن مجاهد: (سيريكم آياته فتعرفونها) قال: في أنفسكم والسماء والأرض والرزق (الطبري: 20/18). وقال أبو حيان في البحر المحيط: سيريكم آياته: تهديد لأعدائه بما يريهم الله من آياته تضطربهم إلى معرفتها والإقرار أنها آيات الله وقيل: آيات في أنفسكم وسائر ما خلق مثل قوله: (سنريهم آياتنا في الماضى وفي أنفسهم)

وقيل: معجزات الرسول وأضافها إليه لأنه هو مجريها على يدى الرسول ومظهرها من جهته (أبو حيان: 7/103) وبمثل ما قال أبو حيان قال البقاعي في نظم الدرر (البقاعي: 14/229:230) ومما سبق يتبين لنا أن البشرية على موعد من الله متجدد ومستمر بكشف آياته في الكون، وفي كتابه أمام الأبصار، لتقوم المحجة وتظهر المعجزة.

أن الوحي في القرآن والسنة؛ يفيض بالخبر عن أوصاف المخلوقات، وهذه الأبحاث العلمية التجريبية؛ تتجه بدراستها وبحثها إلى نفس الميدان؛ الذي وصفه القرآن وتحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم. فاللقاء حتمي والمعجزة - لا شك - واقعة. لقد جاءت العلوم البشرية التجريبية شاهدة بصدق ما أخبر به القرآن من تحريف سائر الأديان كما بين ذلك موريس بوكاي في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة"، والتي جاءت شاهدة ومجلية لدقائق المعاني؛ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية - ذات التعلق بالأمور الكونية - وهذه مناكب دعاة الإسلام؛ على اختلاف تخصصاتهم العلمية، تتزاحم لبيان هذه المعجزات العلمية، وبدأ عدد من الدعاة، من المسلمين، يتجهون إلى بيان هذه المعجزات العلمية كما بدأ عدد من كبار علماء الكون من غير المسلمين، يتجهون إلى نفس الميدان مثلما فعل سبعة من كبار علماء الأجنة والتشريح وأمراض النساء من غير المسلمين في لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في المؤتمر الطبى السعودى الذي عقد في الرياض عام 1404 م فمنهم من أسلم مثل البرفيسور تاجاتات تاجاسن الذي أعلن إسلامه في أحد مؤتمرات الإعجاز العلمي، ومنهم من شهد بحقيقة المعجزة العلمية فحان حين تجلى معاني كثير من آيات القرآن الكونية، وعدد - في نفس المجال - من الأحاديث النبوية (ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) (الانعام: 67) وإذا كان النقص يعترى - بعض الدراسات في مجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فلا يصح أن يكون ذلك حكماً على جميعها وإن هذا ليوجب على القادرين من علماء الإسلام أن يسارعوا لخدمة القرآن والسنة في مجال العلوم الكونية كما خدمها السلف في مجال اللغة والاصول والفقه وغيرها من مجالات العلوم الشرعية فنحن أمام معجزة علمية كبرى تنحنى أمامها جباه المنصفين من قادة العلوم الكونية

في عصرنا.

الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي:

التفسير العلمي: هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية.

أما الإعجاز العلمي: فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي أخيراً وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول. وهكذا يظهر اشتغال القرآن أو الحديث على الحقيقة الكونية التي يؤول (يصير وينتهي) إليها معنى الآية أو الحديث ويشاهد الناس مصداقها في الكون فيستقر عندها التفسير ويعلم بها التأويل كما قال تعالى: (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) [الانعام: 67] وقد

تتجلى مشاهد أخرى كونية عبر القرون، تزيد المعنى المستقر وضوحاً وعمقاً وشمولاً لأن الرسول قد أوتى جوامع الكلم، فيزداد بها الإعجاز عمقاً وشمولاً، كما تزداد السنة الكونية وضوحاً بكثرة شواهد المندرجة تحت حكمها.

قواعد وأسس أبحاث الإعجاز العلمي:

لقد قامت هذه الأبحاث على قواعد نوجزها فيما يلي: - علم الله هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتره خطأ، ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود ويقبل الازدياد ومعرض للخطأ. - هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية. - في الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها. - لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع في الظاهر، فلا بد أن هناك خللاً في اعتبار قطعية أحدهما وهذه قاعدة جلية قررها علماء المسلمين وقد ألف أبو العباس ابن تيمية كتاباً من أحد عشر مجلداً لبيانها تحت عنوان: (درء تعارض العقل والنقل). - عندما يرى الله عباده آية من آياته في الآفاق أو في الأنفس مصدقة لآية في كتابه، أو حديث من أحاديث رسوله يتضح المعنى، ويكتمل التوافق ويستقر التفسير، وتتحدد الدلالات ألفاظ النصوص بما كشف من حقائق علمية وهذا هو الإعجاز. - أن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة فقد قال: "بعثت بجوامع الكلم" (أخرجه البخاري في الجهاد) مسلم في المساجد برقم 5423 والترمذي في السير برقم 1553 والنسائي في الجهاد باب وجوب الجهاد) مما يدل على أن النصوص التي وردت عن النبي تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها التي قد تتابع في ظهورها جيلاً بعد جيل. - إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية رفضت هذه النظرية لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شئ علماً. وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلاً على صحة تلك النظرية وإذا كان النص ظنياً والحقيقة العلمية قطعية يؤول النص بها. - وإذا وقع التعارض بين حقيقة علمية قطعية، وبين حديث ظني في ثبوته، فيؤول الظني من الحديث ليتفق مع الحقيقة القطعية وحيث لا يوجد مجال للتوفيق فيقدم القطعي.

منهجية أبحاث الإعجاز العلمي في ضوء منهج السلف وكلام المفسرين:

للسلف منهج سديد فيما يتعلق بأمر الصفات الإلهية وأحوال يوم القيامة وما لا سبيل إليه من غير طريق الوحي ويتمثل هذا المنهج في الوقوف عندما دلت عليه النصوص بدون تكلف لمعرفة الكيفيات والتفاصيل التي لم يبينها الوحي لأن البحث فيها كالبحث في الظلام، وهي قسر لحقائق الوحي الكبرى في قالب تصورات ذهنية بشرية محدودة الحس والزمان والمكان المحيط بيئة الإنسان. وكلام المخلوق سبحانه عن أسرار خلقه في الآفاق وفي الأنفس غيب قبل أن يرينا الله حقائق تلك الأسرار ولما طريق لمعرفة كيفياتها وتفصيلها قبل رؤيتها، إلا ما سمعنا عن طريق الوحي وكان السلف لا يتكلفون ما لا علم لهم به أن معاني الآيات المتعلقة بالأمور الغيبية ودلالاتها اللغوية معلومة ولكن الكيفيات والتفاصيل محجوبة وإن من وصف حقائق الوحي الكونية بدقائقها وتفصيلها بعد أن كشفها الله وجلها للأعين غير من وصفها من خلال نص يسمع، ولما يرى مدلوله الواقعي لأن وصف من سمع وشاهد غير من سمع فقط. ولقد وفق السلف الصالح من المفسرين كثيراً في شرحهم لمعنى الآيات القرآنية رغم احتجاج حقائقها الكونية، مع أن المفسر الذي يصف حقائق وكيفيات الآيات الكونية في الآفاق والأنفس وهي محجوبة عن الرؤية في عصره قياساً على ما يرى من المخلوقات وفي ضوء ما سمع من الوحي، يختلف عن المفسر الذي كشفت أمامه الآية الكونية فجمع بين ما سمع من الوحي وبين ما شاهد في الواقع.

ونظراً لعدم خطورة ما يتقرر في مجال الأمور الكونية على أمر العقيدة يوم ذاك لم يقف المفسرون بها عند حدود ما دلت عليه النصوص بل حاولوا شرحها بما يسر الله لهم من الدراية التي تيسرت لهم في عصورهم وبما فتح الله به عليهم من إلهام، وكانت تلك الجهود العظيمة التي بذلها المفسرون عبر القرون، لشرح نصوص الوحي المتعلقة بالأمور الكونية - التي لم تكشف في عصرهم - مبينة لمستوى ما وصل إليه الإنسان من علم، في تلك المجالات ومبينة لمدى توفيق الله لهؤلاء المفسرين فإذا ما حان حين مشاهدة الحقيقة في واقعها الكوني ظهر التوافق الجلي بين ما قرره الوحي وما شاهدته الأعين وظهرت حدود المعارف الإنسانية المقيدة بقيود الحس المحدود والعلم المبشور بالمحدود بالزمان والمكان وازداد الإعجاز تجلياً وظهوراً. وكتب الله التوفيق للمفسرين فيما شرحوه من آيات وأحاديث متعلقة بأسرار الأرض والسماء بفضل إلهتائهم بنصوص الوحي المنزل ممن يعلم السر في الأرض والسماء، ومسترشدين بما علم لهم من دلالات الألفاظ ومعاني الآيات.

أوجه الإعجاز العلمي:

وتتمثل أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فيما يلي:

1- المتوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة، وبين ما كشفه علماء الكون أمثال البروفسور كيث ل. مور وهومن أشهر علماء العالم في علم الأجنة وكتابة في علم الأجنة مرجع عالمي مترجم إلى سبع لغات منها الروسية واليابانية والصينية والذي جاء بعد اقتناعه بأبحاث الإعجاز العلمي ألقى محاضرة في ثلاث كليات طبية بالمملكة العربية السعودية عام (1404هـ) بعنوان (مطابقة علم الاجنحة لما في القرآن والسنة) من حقائق كونية وأسرار كونية لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن.

2- تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية في أجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق مثل ما كان شائعاً بين علماء التشريح من أن الولد يتكون من دم الحيض واستمر ذلك الاعتقاد إلى أن اكتشف المجهر في القرن السادس عشر الميلادي بينما نصوص القرآن والسنة تقرر أن الولد يتكون من المني وقد رد علماء المسلمين من أمثال الإمام ابن القيم والإمام ابن حجر وغيرهم أقوال علماء التشريح في عصورهم بنصوص الوحي وذلك مثل ما قاله ابن حجر وزعم كثير من أهل التشريح أن منى الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقده وأنه إنما يتكون من دم الحيض وأحاديث الباب تبطل ذلك (الفتح: 11/480).

3- إذا جمعت نصوص الكتاب والسنة الصحيحة وجدت بعضها يكمل بعضها الآخر فتتجلى بها الحقيقة مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقة في الزمن وفي مواضعها من الكتاب الكريم وهذا لا يكون إلا من عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

4- سن التشريعات الحكيمة التي قد تخفى حكماتها على الناس وقت نزول القرآن وتكشفها أبحاث العلماء في شتى المجالات مثلما كشفه العلم حديثاً من الحكمة في تحريم أكل لحم الخنزير والاعتزال المقصود على الجماع في المحيض ويسألونك عن المحيض قل هو أذى آفاعة النساء في المحيض (البقرة: 222).

5- عدم الصدام بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسواره على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، مع وجود الصدام الكثير بين ما يقوله علماء الكون من نظريات تتبدل مع تقدم الاكتشافات ووجود الصدام بين العلم وبين ما قررته سائر الأديان المحرفة والمبدلة. تنبيه وكلامنا هنا محصور في قضايا الإعجاز العلمي الذي تسفر فيه النصوص عن معاني لكيفيات وتفاصيل جديدة عبر العصور أما ما يتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق فقد بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضح تفسيرها (التفسير والمفسرون للذهبي: 1/34).

الإعجاز العلمي بين المجيزين والممانعين: ينقسم العلماء في هذا الموضوع إلى فريقين فريق: يجيزه ويدعو اليه ويرى فيه فتحاً جديداً وتجديداً في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى دين الله. وفريق: يرى في هذا اللون من التفسير خروجاً بالقرآن عن المهدف الذي أنزل من أجله، وإقحاماً له في مجال متروك للعقل البشري يجرب فيه ويصيب ويخطئ. ولذلك وبعد أن وضحت المنهجية التي تحكم البحث في مجال الإعجاز العلمي ومنهج السلف والمفسرين كان لابد من استعراض رأي الفريقين ومناقشة حججهم.

المجيزون للتفسير العلمي:

أما مجيزوا التفسير العلمي وهم الكثرة فيمثلهم الأمام محمد عبده، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد أبو زهرة ومحدث المغرب أبو الفيض أحمد بن صديق الغماري، ونستطيع أن نعد منهم الشيخ محمد المامين الشنقيطي، صاحب أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن. وهؤلاء الذين يتبنون التفسير العلمي للقرآن يضعون له الحدود التي تسد الباب أمام الدعياء الذين يتشبعون بما لم يعطوا. ومن هذه الحدود:

1- ضرورة التقيد بما تدل عليه اللغة العربية فلا بد من: (أ) أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي. (ب) أن تراعى القواعد النحوية ودلالاتها. (ج) أن تراعى القواعد البلاغية ودلالاتها. خصوصاً قاعدة أن لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية.

2- البعد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي

3- أن لا تجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل تجعل هي الأصل: فما وافقها قبل وما عارضها رفض.

4- أن لا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، أما الحدسيات والمظنيات فلا يجوز أن يفسر بها القرآن، لأنها عرضة للتصحيح والتعديل - أن لم تكن للأبطال - في أي وقت.

الممانعون من التفسير العلمي:

أما الممانعون من التفسير العلمي فيمثلهم في هذا العصر شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت والأستاذ سيد قطب، ود. محمد حسين الذهبي. وهؤلاء الممانعون يقولون:

1- أن القرآن كتاب هداية، وإن الله لم ينزله ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف.

2- أن التفسير العلمي للقرآن يعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولما القرار ولما الرأي الأخير.

3- أن التفسير العلمي للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذي يتنافى مع الإعجاز، ولما يسيغه الذوق السليم.

4- ثم يقولون: أن هناك دليلاً واضحاً من القرآن على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، وهذا الدليل هو ما روى عن معاذ أنه قال: "يا رسول الله أن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم ينقص حتى يعود كما كان فأنزل الله هذه الآية: (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) [البقرة 189].

ولكن هل تكفى هذه الحجج لرفض التفسير العلمي؟:

أن كون القرآن الكريم كتاب هداية لا يمنع أن ترد فيه إشارات علمية يوضحها التعمق في العلم الحديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض، والشمس، والقمر، والليل والنهار، وسائر الظواهر الكونية، كما تحدث عن الإنسان، والحيوان والنبات.

ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافياً لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا أحد الطرق التي سلكها لهداية الناس.. أما تعليق الحقائق التي يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض وأول من رفضه هم المتحمسون للتفسير العلمي للقرآن.. أما أن هذا اللون من التفسير يتضمن التأويل المستمر، والتمحل، والتكلف فإن التأويل بلا داع مرفوض. وقد اشترط القائلون بالتفسير العلمي للقرآن شروطاً من بينها أن لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من إرادة الحقيقة.. وأما الاستدلال بما ورد في سبب نزول الآية (يسألونك عن الأهلة) فهو بحاجة إلى أن يثبت ولما فهو معارض بما رواه الطبري في تفسيره عن قتادة في هذه الآية قال: سألو النبي لم جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون (هي مواقيت للناس والحج

(فجعلها تصوم المسلمون وإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نسايتهم ومحل دينهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه ". وروى عن الربيع وابن جريج مثل ذلك. ففي هذه الروايات التي ساقها الطبري والسؤال هو: لم جعلت هذه الأهلة؟ وليس السؤال ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينقص. ولذلك فإنه لا دليل في الآية على إبعاد التفسير العلمي.

الخلاصة:

إن التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية.. ومرفوض إذا خرج بالقرآن عن لغته العربية.. ومرفوض إذا صدر عن خلفية تعتمد العلم أصلاً وتجعل القرآن تابعاً.. وهو مرفوض إذا خالف ما دل عليه القرآن في موضع آخر أو دل عليه صحيح السنة.. وهو مقبول بعد ذلك إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة، وحدود الشريعة والتحري والاحتياط الذي يلزم كل ناظر في كتاب الله. وهو - أخيراً - مقبول ممن رزقه الله علماً بالقرآن وعلماً بالسنة الكونية لا من كل من هب ودب فكتاب الله اعظم من ذلك.

أهمية أبحاث الإعجاز العلمي وشماتها:

1- امتداد بيئة الرسالة في عصر الكشوف العلمية. إذا كان المعاصرون لرسول الله قد شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات، فإن الله أرى أهل هذا العصر معجزة لرسوله تتناسب مع عصرهم، ويتبين لهم بها أن القرآن حق، وتلك البيئة المعجزة هي: بيئة الإعجاز

العلمي في القرآن والسنة، وأهل عصرنا لا يذعنون لشيء مثل إذعانهم للعلم، على اختلاف أجناسهم وأديانهم.

2- تصحيح مسار العلم التجريبي. لقد جعل الله النظر في المخلوقات، الذي تقوم عليه العلوم التجريبية طريقاً إلى الإيمان به، وطريقاً إلى الإيمان برسوله ولكن أهل الأديان المحرفة كذبوا حقائقه، وسفهاوا طرقه، واضطهدوا دعائه، فواجههم حملة هذه العلوم التجريبية، بإعلان الحرب على تلك الأديان، فكشفوا ما فيها من أباطيل، وأصبحت البشرية في متاهة، تبحث عن الدين الحق، الذي يدعو إلى العلم، والعلم يدعو إليه. أن بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصحيح، طريقاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ومصداقاً بما في القرآن، ودليلاً على الإسلام.

3- تنشيط المسلمين لاكتشافات الكونية، بدوافع إيمانية. أن التفكير في مخلوقات الله عبادة، والتفكير في معاني الآيات والأحاديث عبادة، وتقديمها للناس دعوة إلى الله. وهذا كله متحقق في أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وهذا من شأنه أن يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التي عاشوها فترة من الزمن في هذه المجالات. وسيجد الباحثون المسلمون في كلام الخالق عن أسرار مخلوقاته، أدلة تهديهم أثناء سيرهم في أبحاثهم، تقرب لهم النتائج، وتوفر لهم الجهود. واجب المسلمين إذا علمنا أهمية هذه الأبحاث في تقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم. عن بلاد المسلمين، وفي دعوة غير المسلمين، وفي فهم ما خوطبنا به في القرآن والسنة، وفي حفز المسلمين للأخذ بأسباب النهضة العلمية، تبين من ذلك كله أن القيام بهذه الأبحاث من أهم فروض الكفايات.

وصدق الله المقاتل: " (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) (البينة:1)